اللغة العربية دورها ومكانتها في حوار الحضارات

الدكتور علي رضا محمد رضائي*

خلاصة

ان شبه جزيرة إيبريا إقليم انضمّ سكانّه إلى قادة العرب للتخلص من جور الحكّام الأجانب، فلم يلبث أن عمّ الإسلام أنحاء الجزيرة المترامية الأطراف. دخل الناس في الدين أفواجاً فبنوا بعدما انضموا إلى المهاجرين حضارة سامية زاهرة وأقاموا دولة إسلامية استمرّت ثمانية قرون، سادت فيها حياة مشتركة أخوية بين المسلمين والمسيحيين واليهود. فأصبح التاخي رمز الازدهار السريع والرائع للحضارة الإسلامية الأندلسية.

سوف نركز الضوء في هذه المقالة الموجزة على جانب من التعايش الاجتماعي والثقافي والسياسي بين العوالم الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية وعلى التطورات والتبادل العلمي طوال ثمانية قرون حكم خلالها المسلمون الأندلس باعتبارها يتيمة السلم والمودة العالمية، مذكّرة أن الأندلس كانت النموذج الوحيد والبارز المتلألئ على صفحة التاريخ ورمز الوحدة العالمية لتحيى بذلك أجواء السلم التي كانت سائدة في تلك الحقبة، في الأذهان اليوم وفي بال كلّ من يدّعي الذود عن حياض السلم؛ ومن جانب آخر تنظر المقالة نظرة عابرة إلى مكانة اللغة العربية وسواها في ذلك التعايش.

* أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بفرديس قم (التابع لجامعة طهران).

مقدمة:

سكن أسبانيا عنصران، هما: «سلت» و«إيبري» طوال قرون، ثم تحولا شيئاً فشيئاً إلى عنصر واحد بالزواج. دخل هذه المنطقة على مرّ الزمن أقوام عدّة: **الفنيقيون** هم الأوائل الذين بقوا إلى ألف ومائة قبل الميلاد ثم اليونان. لقد جاء كلاهما عبر الطرق البحرية كي يبرما حبل التجارة بين البلاد التي كانت تحيط البحر المتوسط. وردت بعدهم قبيلة «قرطاجنة»[١] من شمال أفريقيا لإقامة دائمة في أسبانيا، فقد حكموا قرنين قبل الميلاد وجعلوا مدينة قرطاجنة مركزاً تجارياً لمنطقة البحر المتوسط. ثم بلغ دور الروم منذ مائتي سنة قبل الميلاد حتى ٥٨٤ بعد الميلاد.

قيل إنهم بنوا أكثر من ثمانمائة مدينة جميلة وأشاعوا لغات ثلاثة: «**الكاتالونية**»، «**البرتغالية**» و«**الأسبانية**». كانت هذه الثلاثة، إلى جانب اللاتينية التي كان الناس ينطقون بها، تعتبر لهجات. ثم أغارت قبائل «**الجرمان**» المتوحشون على هذه المنطقة فسيطرت منهم قبيلة «**قوت**» أو «**فيزيقوت**» الذين كانوا يعبدون الأصنام فتنصّروا بامتزاجهم باللاتينيين وتعلموا لغتهم. ولكنهم لم يقدروا على تدبير أمور المجتمع والرعايا بل لم يتمكنوا من إطفاء نيران الفتن والعداوة بين أفراد أسرتهم[٢].

ويروى، أنه حكم أسبانيا منهم ستة وثلاثين عاهلاً حتى دخول الإسلام سنة ٢٩هـ. كان آخرهم «**رودليق**»[٣] الذي قتله طارق بن زياد.

وتعتبر انتصارات المسلمين خلال ٩٢ حتى ٩٨هـ. التي عبّر عنها بصواعق في سماء أسبانيا[٤]، طورا جديداً من الفتوحات الإسلامية. كان الوليد بن عبدالملك، سادس الخلفاء الأمويين، يحكم من الشام على ما فتح الإسلام من البلدان. وكان موسى بن نصير، أحد أمرائه يتابع في القيروان سياسة توسيع الفتوحات الغربية بقيادة طارق بن زياد. ومن جانب آخر، كان العالم في تلك الحقبة يحترق في نار الجهل والأمية والتوحش والجور، بينما ذاع صيت الإسلام بالعلم والعمران والعدل والرحمة والمحبة في كافّة أرجاء العالم؛ العوامل التي أدّت إلى أن يقوم المسلمون بعد انتصاراتهم في شمال أفريقيا بعملية عبر المضيق الذي كان يربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي، فنزل طارق على صخرة سمّيت بجبل طارق ودخل بجيشه أرض أيبريا فانتصر بسرعة. كما قام موسى بن نصير بنصرته فور بلوغ الخبر. وقد ساهم في تحقيق هذا النصر العظيم رجال من دمشق وحمص، فلسطين، والأردن، والعراق، وأهل قنسرين، ومصر، والحجاز، وإيران.

أما الحادثة المرّة التي ما زالت ولا تزال تؤذي المسلمين، فهي أنّ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، دعا موسى بن نصير وطارق إلى الشام مركز الخلافة. ولو لم يفعل ذلك لنوّر الإسلام بمعطياته أوروبا أكثر وأسرع مما نعرفه اليوم. لكنّ الهجمات استمرّت في الشمال للوصول إلى فرنسا، ولم تتوقف إلا بعد ١٤٢هـ(٥).

وبعد انتصار بني العباس في الشرق، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الشهير بـ «**الداخل**» إلى شمال أفريقيا ثم إلى الأندلس فأقام سنة ١٣٨هـ الدولة الأموية الأندلسية في مدينة «**المنكّب**»(٦)؛ حيث بادر عبد الرحمن وخلفاؤه إلى توسيع سلطانهم وتمكنوا من إيقاف زحف الأمراء المسيحيين في الشمال، ومن إطفاء نيران الفتن الأهلية.(٧)

واكتفى الأمويون بالإمارة لمدّة طويلة حتى اعتبر عبدالرحمن الثالث، ثامن الخلفاء الأمويين، نفسه خليفة الأندلس سنة ٣١٧ هـ(٨). وتمكن من قهر السلاطين المسيحيين: منهم ملوك «**ليون**» و«**قسطله**» (كاستيل) و«**نواره**»، واستطاع أن يطرد المهاجمين الأفريقيين، ليستولي على البحر المتوسط بقواته البحرية. ومع أن الخلفاء حاولوا أن يحفظوا سلطانه ونفوذه لكن الدولة الأموية انقسمت بالفتن إلى إمارات صغيرة سميت في تاريخ الأندلس بملوك الطوائف. حكموا بعد الأمويين حتى سنة ٨٩٧هـ.

إذا اعتبرنا دخول طارق أرض أيبريا بداية الحكم الإسلامي، فقد حكم المسلمون على الأندلس ثمانية قرون، وإذا اعتبرنا إقامة الدولة الأموية مبدأ الحكم، فإنهم دبّروا الأمور سبعة قرون. طوال هذه الحقبة سادت حياة مشتركة أخوية بين المسلمين واليهود والمسيحيين؛ الاشتراك الذي نعتبره رمز الازدهار المطرّد الرائع للحضارة الإسلامية الأندلسية. وبناء على هذه المقدمة التاريخية تحاول هذه المقالة الموجزة معالجة موضوعين: الأول: **طابع التعايش السلمي للعوالم الثلاثة ومكتسباته**. والثاني: **مكانة اللغة العربية وسواها في هذا التعايش:**

طابع التعايش السلمي للعوالم الثلاثة ومكتسباته

ما حدث بعد الفتح في الأندلس من الاتحاد وظهور الأخلاق وتطبيقها ورعاية حقوق الإنسان والمدنية والتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية و... لا يمكن أن يقارن بما كان قبل الفتح.

منذ بداية انتصار العرب في الأندلس، حدثت نهضة قومية إقليمية خارقة العادة؛ اختلط

العرب، ببركة الإسلام، بسواهم من البربر المستعربين والإقطاعيين المسيحيين الكبار الأرستقراطيين، وغيرهم من الفئات والطبقات الاجتماعية مشكلين خليطا اجتماعيا متعدد الأعراق والثقافات، منسجما في الوقت عينه.

وليست هذه المعاملة الحسنة للفاتحين الجدد، إلا استجابة لدعوة الإسلام إلى الرفق بالسكان الأصليين، ما دعا بعض العلماء الغربيين للاعتراف: بمعاملة المسلمين السكان الأصليين على نحو معاملتهم لأهل الشام ومصر، وفوّضوا اختيار أموالهم ومعابدهم وقوانينهم إليهم، وخيّروهم بين أن يعتنقوا الإسلام وبين أن البقاء على دينهم تحت إشراف أمرائهم وقضاتهم» ويعطوا جزية كان مقدارها ديناراً للأمراء ونصفه للآخرين. وقد كانت تلك الشروط سهلة، بحيث استقبلها الناس جميعاً إلا أرباب الثروة[٩]. فقد ألغي ما امتازت به الطبقات الممتازة والرواتب العالية التي كان يتمتع بها أرباب الأديان والأمراء والطبقة الأرستقراطية. فتحرّر المستضعفون والمظلومون والغلمان والعبيد الذين كانوا يعاملون كالدواب، فاستخدموا الأراضي الّتي كانت تحت إشرافهم بكلّ حرّية. وألغيت الضرائب التي كانت تثقل كاهل الفنانين وأصحاب الحِرَف. فأدت إلى أن تنسج هناك الأقمشة الحريرية، وتدبغ الجلود وتستخرج المعادن ويستحصل السكر، ثم يحمل كل ذلك إلى أفريقيا والشرق.[١٠]

هكذا انعقدت عهود بين المسلمين والمستعربين والمستوطنين على أساس الاحترام المتبادل ورعاية الحقوق واحترمت المواثيق التي كانت معقودة بينهم قبل الفتح.

لم تجمّد الأراضي إلا أراضي الأمراء ورؤساء الكنائس والأساقفة الكبار الذين إما أنهم هربوا، وإما أنهم لم يسلّموا بل قاموا في وجه الدولة. فتمكّن المسلمون من أن يساهموا في زراعة الأراضي جميعها خلال قرن. وبلغ التطور الاجتماعي حتى نهاية العصر الأموي الأندلسي درجة عالية يمكننا أن نعتبره عصر الهدوء والاستقرار. ومن المعروف أنه كان للمسلمين ما فاقوا به النصارى من الحضارة والأخلاق والعلوم والفنون، فأثرت الحضارة وآداب المدن الإسلامية وسننها اللطيفة في آداب الأسبان وسننهم ومدنيتهم؛ فتسربت إلى البلاطات المسيحية الصغيرة في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية فلقنتهم الرغبة في الرخاء والرفاهية؛ استقبل الناس في جميع الأقطار الشطرنج الذي نقله العالم الموسيقي «زرياب» إلى قرطبة، فلم يلبث أن راج في بلاط ملوك «ليون» باسم «أخدرش». وأيضا رمي الرماح، والسباق كانتا من المباريات التي تقام في غرناطة حتى قصر الحمراء. فضلاً عن الحفلات

والأعياد التي اختصت بالمسلمين؛ حيث كان هناك حفلان فارسيان؛ هما «**النيروز**» في أول الربيع و«**المهرجان**» في بداية الخريف.

وقد بقي العرب الأندلسيون على طابعهم الأندلسي وحفظ المستعربون صفاتهم العربية عن طريق احترامهم لدينهم. فهذا التعايش الاجتماعي الذي يعدّ من الطوابع الساطعة لتأريخ الأندلس تحقق في فترة كانت النزاعات والصراعات من ظواهرها البارزة. كانت فرنسا تتألم من السلب والنهب والسفك، ولم تكن لإنجلترا مكانة وسمعة، كانت تدار حيناً تحت انتداب الروم وحيناً كان يهاجمها أقوام الجرمن حتى أغار عليها طائفة من قراصنة البحر مسماة بـ «**آنجلو سكسون**» ففتحوا الجزيرة وسموها إنجلترا في حين لم يكن سائر أنحاء أوروبا أحسن حالاً منهما. الثورة الأرستقراطية التي حدثت في القرنين الثامن والتاسع أدّت في الإسلام إلى ظهور مجتمع يهودي جديد كلّ الجدّة، اختلف اختلافاً كاملاً عما كانت عليه أوروبا المسيحية في القرون الوسطى ويذعن الكّتاب في الجامعة العبرية في القدس، بأن الحياة في هذا العصر في الأقاليم الإسلامية كانت أسهل من سائر أنحاء العالم. لم ير اليهود قبل ذلك في البلاطات المسيحيية أيّ سكون وهدوء، بل تحملوا أشدّ الضغوط والتعذيب بينما كانوا في الممالك الإسلامية في سلم وهدوء بال.(١١) كان المسلمون أحسن وألطف وألين مما كان الفاتحون قبلهم(١٢): لأنهم قبل الفتح عندما اعتنق كثير من الناس في أسبانيا مذهب الروم الكاثوليكي بدأ المسيحيون بتعذيب اليهود لكنّهم بلغوا بعد الفتح الإسلامي الهدوء، استقبل اليهود الفاتحين، وساهموهم في الفتح. وليس من الغريب أن كان المسلمون أكثر علماً وحضارة من المسيحيين؛ بينما كان الغرب يرى صدى نور القمر في الله كان الأندلس واليهود يرون الله في الشمس يمطر مواهبه على الناس خلاقاً كبيراً متعالياً. شهدت أسبانيا صراعا وكفاحا، كانت الأرض تفقد خصبها وأثمارها حيثما كان المسيحيون وعلى العكس تنبثق المياه وتتدفق الحياة وتجري الأنهار ويخضرّ التراب وتزهو الزهور؛ حيث يوجد المسلمون.

يقول «**جوله ميشله**»: ازدهر الفكر أيضاً بهم، فكانوا يرغبون الفن والموسيقى والشعر ناظرين إلى الحياة نظرة احترام وحرية ومحبّة، فعاملوا اليهود برفق وسمحوا لهم أن يواصلوا حياتهم في سلم وهدوء وأن يعملوا بقوانينهم الدينية، فما هو قيمتنا دونهم.(١٣)

وكانوا يقيمون مراكزهم الثقافية النشيطة؛ حيث بلغ كثير منهم درجات عالية في المناصب الحكومية السياسية، بينما كانوا، قبل دخول الإسلام الأندلس، فلاحين وتجاراً

صغاراً؛ أشهرهم «حسداي بن شابروت» في القرن العاشر للميلاد (٩١٥-٩٧٠)، و«شموئيل نقيد» وابنه «يوسف» في القرن الحادي عشر. بعد أن توفي حسداي تقلّد رئاسة اليهود يعقوب بن جائو (٩٩٠م) ولكن شموئيل نقيد (إسماعيل بن نغريلة) يعتبر بعد حسداي أعظم قائد لليهود في الأندلس، كان من آل داود كما كان حسداي وزّر ابنه يوسف بعده، فبلغت في عهده الحروب بين الحكومات الإسلامية في غرناطة وأشبيلية إلى الذروة. أعرب المسلمون عن نفرتهم منه لطمعه في المال وإثارته الفتن والحروب، ومنهم أبو إسحاق بن مسعود الأيبيريي أنشد شعراً أدّى إلى قتله متهماً بقتل نائب الخليفة في غرناطة.

ولا أنسى أن أول مفكّر مسلم اهتم بالتركيب السياسي الداخلي لليهود وأدرك خطره هو أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤/٤٥٧ هـ - ١٠٦٤ م)؛ إنه بدراسته العميقة في تاريخ التفكير الديني تعرّف على المجتمع اليهودي فبدأ بكتابة رسالة «الردّ على ابن النغريلة اليهودي[١٤]». المسيحيون أيضاً، كما أشرنا، كانت لهم قوانينهم وقضاؤهم ويقومون بآدابهم وسننهم الدينية، يتعبدون في كنائسهم وإذا لم توجد كنيسة في مكان، كانوا يبنون معبداً غربي كل مسجد لعبادتهم بينما كانوا يحتفظون بالقسم الشرقي[١٥].

وأما التعايش الثقافي، فكانت له جوانب مختلفة؛ النهضة العلمية، والاحتكاك والعلاقة، التبادل والخلق، إعادة الإبداع مع حفظ السنن. وأما النهضة العلمية فكانت بنشر العلوم وتأسيس المعاهد والجامعات. والعلوم التي جاء المسلمون بها إلى الأندلس نوّرت ظلمات الأوروبيين العقلية. وكانت القراءة في فرنسا حتى سنة ٦٠٠ هـ تختص بالرهبان ورؤساء الكنائس. كان العلم قد انتهى تماماً وتبدّل بالسحر. هذا ويكتب «استانلي بل»: إن الأندلس كان مركز الحضارة والعلم والفن والفكر. وكانت قرطبة أكبر مركز ثقافي لأوروبا تشتمل على أعظم المكتبات والقصور والمساجد والبلاطات. بينما لم تحصل فرنسا وإنجلترا عليها إلا بعد قرون. بينما كانت جامعة أكسفورد تعتقد أن الاستحمام ميراث جاهلي وثني، كانت أجيال الأندلس تكثر من تشييد الحمامات العامة[١٦]. فلم يأت الإحياء وتجديد البناء من الشمال على يد القبائل المتوحشة، بل أتى من الجنوب على يد المسلمين المنتصرين الذين كانوا فاتحين ذوي حضارة وثقافة، قبل أن يكونوا مسيطرين على البلاد. وجّراء ذلك تسرّبت إلى البلاد ثقافة يانعة شابة ذكية كانت تتلألأ مع تقدم سريع في غرب ذلك الإقليم.

والحضارة التي بنيت على الحبّ للنبيّ(ص) تمكنّت من جذب علوم الروم الشرقية وإهداء حضارة هند وإيران وما أخذ عن الصين الساحرة.

قبل أن يفتح المسلمون الأندلس، لم تكن هناك مناظرات وآراء فلسفية، بينما انتشرت العلوم المختلفة باستقرار العرب في الأندلس، فلم تتح للفلسفة فرصة جديدة تتمكن بها من الظهور في ثوب جديد، بل انتشرت في هذه الأقاليم كما كانت في المشرق بازغة في منتصف القرن الثالث الهجري. لم يعتن بها لخمسين سنة فحسب، بل اتهم الفلاسفة بالزندقة. أما الحوادث والفتن في زمن ملوك الطوائف فمنعت ملوك قرطبة من مطاردة الفلاسفة وإصدار الحكم عليهم، ما أدى إلى أن تتمتع الفلسفة بالحرية والنشاط ويتمكن الناس عن طريق المكتبات العامرة من التعرف على المباحث الفلسفية وعلم الحساب والمنطق.(١٧)

فاحتكّت المكتسبات الخارجية خاصة مستوردات الثقافة الشرقية الإسلامية بالإنتاجات الإقليمية احتكاكاً لم يكن له نظير من قبل. فوسع علماء اليهود الأندلسيين في احتكاكهم بأفكار المسلمين عوالمهم الأسطورية والفلسفية والصوفية والعلمية والأدبية، فأغنوا بذلك حضارة الأندلس، وتمكن كتّاب اليهود عن طريق العناصر الثقافية لعالمهم وعالم الإسلام، من المساهمة بشكل مقبول في الحياة الفكرية والثقافية؛ لأنّ هجرة اليهود بدأت إلى الأندلس مع ازدهار الحضارة الإسلامية في الجزيرة الإيبرية حتى دعا «رافائل باتاي»، محرّر دائرة المعارف الصهيونية الإسرائيلية، هذه الحقبة بالعصر الذهبي وذروة ازدهار الثقافة اليهودية منذ خروج اليهود من فلسطين حتى ظهور الحضارة الجديدة في الغرب.(١٨) لذلك فتحت الأندلس الإسلامية طوراً جديداً في الثقافة اليهودية، فأخرجت اليهود من عالم التلمود الضيّق، إلى التفكير الفلسفي متأثرين في ذلك بالمسلمين واليونان. هذا شيء عجيب جداً من حيث إنّ كثيراً من اليهود عقدوا علاقات بناءة بعالمي الروم واليونان. فهذا، في مجال الفلسفة، كان أحد الطوابع المرموقة لذلك التعاون المشترك فدخل التفكير الفلسفي بموسى بن ميمون (ابن ميمون) (١١٣٥ - ١٢٠٤م) الفيلسوف المشائي إلى عالم اليهود.

فضلاً عن ذلك، بلغ اليهود درجة عالية من الرفاهية والرقيّ الثقافيّ الذي سجّل به في المصادر التاريخية ألف شاعر عبري قاطن في الأندلس ذاع صيتهم في الآفاق؛ مثل: «إبراهيم بن عذراء» (١٠٩٢ - ١١٦٧م) الشاعر والمتكلم الذي ألّف ١٠٨ مجلداً من الكتب،

كما بلغت (١١٨٠) كتابة تاريخ اليهود بإبراهيم إبن داود إلى الذروة، و«موسى بن عذرا» (١٠٥٥ – ١١٣٥م) الذي كان شاعراً ناطقاً بالعبرية، كما برز «بنيامين تودلايى» (المنتصف الثاني من القرن ١٢) الشاعر والفيلسوف الذي اشتهر بكتابه «ذكريات السفر.»[١٩]

وأما سائر العلوم كقراءة القرآن الكريم وعلم الحديث، فكانت لهما مكانة سامية لكنّ علم الأصول (أصول الفقه) أصبح متوسط الحال. وعلم النحو كان في الذروة، فمن كان نحوياً لم يعتبر بالذات كبيراً، فحسب بل كان يتمتع بالهيبة. و«الهيوج النحوي» كان منافساً معارضاً لنحاة العرب. وأما الفقه، وبخاصة الفقه المالكي الذي انتشر في الأندلس، فقد أصبح أداة عاملة لتنظيم علاقات التعايش بين الفرق الاجتماعية. أثرت تعاليم الغزالي (١٠٥٨ م – ١١١١) – أحد كبار مفكّري الإسلام وأحد فقهائه، وتجاربه المعنوية – تأثيراً وافراً في تاريخ التفكير والثقافة في الشرق والغرب خاصة بين مثقفي اليهود. فدراسة سنن العرب واليهود المكتوبة والشفوية تدلّ على التأثر اليهودي بالمسلمين. كان التشابه بين التلموذ والمدارش (مجموعة من المواعظ والقصص) والأشعار الشعبية اليهودية بما يعادلها في العربية من الأدب الديني واضحا جداً. نحصل من تعاليم ابن عربي (١١٦٥– ١٢٤١)، الذي كان من وجوه التصوف المتلألأة، ومن عبارات المتصوفين الأندلسيين على نقاط مشتركة وأقطاب متشابهة تبلغ فيها تعاليم المسلمين المعنوية وتعاليم اليهود الباطنية إلى نقطة واحدة.

وأما الأدب بمعناه الخاص، فيشار إلى انتشار الشعر انتشاراً واسعاً. كانت المرحلة الأولى مرحلة انتقال الأدب المشرقي إلى المغرب. حمل العرب إلى الأندلس طبيعتهم الشعرية كما حملوا نزعاتهم العرقية والاجتماعية، فتسربت الأغراض والأساليب إلى الغرب دون تغيير وتبديل، ولكن زادوا على الرثاء لوناً سياسياً عندما رثوا الممالك الزائلة وأوغلوا في الوصف إيغالاً شديداً خاصة وصف الطبيعة وجمال الكون؛ جعلها الشاعر الأندلسي منبع تصويره وتزيين كلامه.[٢٠] تناغم الشعراء في تلك البيئة مع طبيعة بلادهم مستلهمين فيها مصفين أذهانهم بها. وقد بلغ وجدانهم الذروة، مؤثراً في كلامهم تأثيراً عالياً، فسيطر عليه خيال رائع نشأ عن مظاهر الجمال الذي كان منتشراً في الجزيرة.[٢١]

ففتح الشعر جناحيه أكثر من كل فنون الأدب، وساد جميع الصنوف. لكن التقليد الشعري لم يواصل سيره بل قويت الذاتية الأندلسية في القرن الحادي عشر، وأخذ الأندلسيون يعرضون شيئاً فشيئاً عن المشارقة، فازدهرت حركة التصنيف فكان «العقد

الفريد» لابن عبد ربّه، و«الذخيرة» لابن بسّام و«قلائد العقيان» لابن خاقان و«التوابع والزوابع» لابن شهيد.

مكانة اللغة العربية وسواها

علاقه المسلمين المستمرّة واحتكاكهم بالأسبان دفعهم إلى تعلّم لغة الرومان التي كانت مشتقة من اللاتينية والأيبرية. فكانوا يتحدثون بها في منازلهم خلال إقامتهم في الأندلس. فبرز بين المسلمين في الأسبان جمع غفير يجيدون اللغتين: العربية والرومية.

وقد أشاع الروم كما أشرنا سابقاً في أسبانيا ثلاث لغات: الكاتالونية، البرتغالية والأسبانية، كانت كلها في البداية لهجات لكنها على مرّ القرون هذّبت وكملت فأصبحت لغة بارزة. أصبحت لغة «كاتالان»، رغم ماضيها المشرق وما كانت فيها للناس من الذكريات القومية، أصبحت عتيقة ثمينة. اللغة البرتغالية بقيت لهجة إقليميّة بين أهل «جاليسيا» في الجنوب الغربي، وأما اللغة الأسبانية أي الكاستيلية فكانت لغة وطنية موزونة لطيفة الجرس والموسيقى، أغنتها اللغة العربية التي جاء بها المسلمون. وأخذت اللغة الأسبانية كثيراً من المفردات عن العربية. وكانت الاحتكاكات اللغوية قوية جداً، فتسربت كثير من المفردات في اللغات الإيبرية. حتى إن «دروثي لودر» يعتقد أن المستعربين نسوا اللغة الرومية التي ورثوها عن الروم وتكلموا العربية، اللغة الوحيدة التي يُنطق بها في ذلك الإقليم، فلزم أن يترجم الإنجيل بالعربية؛ بحيث إن القساوسة كانوا يقرأون الإنجيل بالعربية ويعظون الناس بها.[٢٢]

وكان الشباب المسيحيون يقرأون الآثار الأدبية العربية ويكتبون بها. فكانت هذه اللغة من البداية لغة نقل الثقافة؛ استخدمها اليهود والمسيحيون في جميع نشاطاتهم الفكرية: كالعلم والدين والأدب الديني وغير الديني، والترجمة والنقل وتفسير التوراة والمشنا، ورسائلهم الدينية والفلسفية وشرح الآداب والسنن الدينية وقواعد اللغة والمعاجم والمكاتبات. كما كان «سعد بن دنان» آخر شاعر يهودي في غرناطة ألّف آثاره النحوية ورسائله باللغة العربية، على أسلوب «ابن ميمون» متأله قرطبة اليهودي وطبيبها الشهير (في القرن ١٢).

وكان يهود الأندلس يجيدون اللغة العربية ولغة الرومان، فضلاً عن العبرية التي كانت لغة دينهم وعلومهم، فتمكنوا أن يبنوا بنيان الدراسات المقارنة في اللغة بتضلّعهم في تلك

اللغات الثلاث، ويلعبوا دور المترجمين بين المسلمين والمسيحيين، وكان لـ «أبي عبدل»، ملك غرناطة، مترجمان يهوديان: «إسحاق بردونيل» وصهره «يهودا».

وجدير بالذكر أن نشير إلى دور المسيحيين الثقافي في هذه الحقبة؛ بوصفهم الناطقين باللغات الثلاث أيضاً، فكانوا جسراً ثقافياً بين الثقافة الأوروبية والشرقية. لم يكن هؤلاء مترجمين فقط بل أصحاب معاجم مساهمين في نقل الثقافة الويزيجوتية. وكان «إيزيدورس» الأشبيلي آخر قديس غربي ألّف كتاباً سمّاه: «اتيمولوجيا» أو «الجذور»، الذي كان كنزاً من الثقافة الدينية وغير الدينية آنذاك.

أما في مجال التبادل الثقافي، فقد لعبت الأندلس دور حلقة الوصل في نقل العلوم والفلسفة اليونانية إلى الغرب المسيحي، وفي دخول العلم وأساليب التفكير اليوناني إلى عالم اليهود بفضل الأدب العربي. فاجتمع الأدباء في «توليدو» (طليطلة) خلال القرن الثاني عشر إثر ما أمر به دون «ريموندو» الوزير الأعظم للعاهل الكاستيلي، من ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في النجوم والطب والتاريخ و الفلسفة، فنشر المترجمون آثار أرسطو وجالينوس وبقراط التي شرحها ابن سينا وابن رشد في أنحاء أوروبا في القرون الوسطى.(٢٣)

وختم الزهد الإسلامي منذ البداية على جبين التصوف والأخلاق اليهودية، فتعلم كثير من الزهاد اليهود ومتصوفيهم في مدرسة التصوف الإسلامي نوعاً من المعنوية التي سلّموها إلى الثقافة اليهودية، فكانت هذه التعاليم في البداية عن طريق اللغة العربية ثم عن العبرية وسائر اللغات. فتبدل تمجمج العرفاء اليهود بفصاحة العرفاء المسلمين النشيطة المشوّقة التي كانت أداتها اللغة العربية.

أمر (١٢٥١م) آلفونس الكاستيلي، ابن القديس فرديناند الثالث، بترجمة كتاب كليلة ودمنة من العربية إلى الكاستيلية. فأثرت هذه الترجمة تأثيراً هاماً في الأدب خاصة في كتب «رونار» الروائية وقصص «بوكاشي يو» وأساطير «لافونتين».

وقد جمع آلفونس العاشر الذي كان قد ذاع صيته في العالم وبلغ إلى الحكم سنة (١٢٥٢م) الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخين حوله فبادر إلى نقل التراث الذي بقي، من الثقافة الإسلامية في البلاد، إلى اللغة الكاستيلية؛ الأمر الذي ساهم فيه المسلمون والمسيحيون واليهود الناطقون باللغة العربية.

كما أسَّس آلفونس في مدينة «مورسي» أول مدرسة كانت تنعقد فيها بحوث ومناظرات في الأديان الثلاثة؛ الإسلام، والنصرانية واليهودية. وكان الطلبة يحضرون ويتعلمون على الأديب العربي الشهير؛ محمد الريقوتي.

فتعرفت أوروبا ببركة هذه الترجمات على الفلاسفة وعلماء الحساب والنجوم والفلك والأطباء اليونانين من جانب، وعلى المفسرين ونظرائهم الناطقين باللغة العربية من جانب آخر. قال «هسلينر»: كان نقل هذه المعارف والعلوم إلى أوروبا الغربية نقطة عطف بنّاء في تاريخ الفكر الأوروبي. كما كتب أحد الأوروبيين: «**يعجز القلم حقاً عن بيان مدى الآداب والسنن والعلوم والأصول الإنسانية والسعادة التي جاء بها المسلمون إلى الأندلس، التي كانت سبباً رئيساً لرقيّ العقل الأوروبي وتربيته. ولو لم يدخل هؤلاء المسلمون أوروبا؛ لما كان معلوماً مدى تأخرنا وتخلفنا عن ما نحن عليه راهناً. تعلمنا العلوم المختلفة والإبداعات الجديدة في العلم والعمران والمدينة وعلم الاجتماع والسياسة وتأسيس المكتبات**»[٢٤]...

هذا التعايش السلمي الذي لا مثيل له في التاريخ لم يغن شبه الجزيرة الإيبرية فحسب، بل أوروبا والبلاد الغربية بشكل عام. فلعب الأندلس دور حلقة الوصل، فربط القرون الأولى بالوسطى وأصبح ملتقى الشرق والغرب وجسراً ثقافياً حقيقياً بينهما؛ وما زال ولا يزال يطنّ في آذان الأعصار والقرون حتى يتمكن محبو السلم أن يستلهموا منه ويتقدموا نحو توحيد القلوب.

الهوامش:

(١) Carthage

(٢) دروثي، لودر (Dorothy Loder)؛ سرزمين ومردم اسپانيا؛ شمس الملوك مصاحب، ص ٣٣.

(٣) Roderick

(٤) مونتگو، مري وات؛ اسپانياي اسلامي: محمدعلي طالقاني، ص ١.

(٥) حسني، علي٤ ٣١اكبر؛ تاريخ تحليلي وسياسي اسلام، ص ٣٣٥.

(٦) المقري؛ نفح الطيب، ج ١ ص ٢، سيدامير، علي؛ مختصر تأريخ العرب، ص ٢٩١.

(٧) سيدامير علي، المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٨) المقري، المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٩) گوستاو، لوبون(Lebon Gustavo)؛ تمدن اسلام وغرب، ص ٣٣١ و٣٣٢.

(١٠) گوستاو، لوبون؛ المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(١١) بي ناس، جان؛ تأريخ جامع اديان؛ على اصغر حكمت، ص ٥٦٥ و٥٦٦.

(١٢) دروثي، لودر؛ المصدر السابق، ص ٤٣.

(١٣) كلاپرمن، ژيلبرت وليبي؛ تاريخ قوم يهود؛ مسعود همتي، ج٣، ص ١٥.

(١٤) شهبازي، عبدالله؛ زرسالاران يهودي وپارسي واستعمار بريتانيا، ج، ص.

(١٥) دروثي، لودر؛ المصدر السابق، ص ٤٤.

(١٦) آل علي، نورالدين؛ اسلام در غرب، ص ١٦٠ – فيليپ حتّي؛ تاريخ عرب، ص ٧٥١ و٧٥٢.

(١٧) الخفاجي، محمد عبدالمنعم؛ الأدب الأندلسي، ص ٢٠٧.

(١٨) شهبازي، عبدالله؛ المصدر السابق.

(١٩) شهبازي، عبدالله؛ المصدر السابق.

(٢٠) الفاخوري، حنا، الجامع في تأريخ الأدب العربي؛ ج ١، ص ٩٤٢.

(٢١) الخفاجي، محمد عبدالمنعم؛ المصدر نفسه، ص ٣١٠.

(٢٢) دورتي، لودر؛ المصدر السابق، ص ٤٤ و٤٥.

(٢٣) گوستاو، لوبون؛ المصدر السابق، ص٧٣٢.

(٢٤) تاريخ فتوحات اسلامي در اروپا.